القوى وتأخذ في النمو حتى يعلن الولد حرباً على الاتكالية التي كان فيها. وما إن يبلغ سنّ الرشد حتى يستقلّ عن والديه بحركاته وتفكيره ومشاعره ويصبح مساعداً لهما لا عالّة عليهما.

لكنّ سنّ الرشد للطفل المزمع أن يصبح رجلاً أو امرأة هي غير سنّ الرشد للإنسان العتيد أن يتألّه. تلك يدركها الناس في عقدين من السنين. وهذه لا يدركونها في عقود العقود من الأجيال والقرون. لذلك كانت حرب الإنسان ضدّ القيود التي تفرضها عليه غرائزه أطول وأقسى بما لا يقاس من حربه ضدّ القيود التي تفرضها عليه طفولته.

قلت إن الإنسان لم يتقن بعد استعمال سلاحه الجديد. فما أكثر ما يؤذي به نفسه ويؤذي الآخرين. كالطفل يقبض على النار فيبكي. ويكوي بها غيره فيضحك. فما أشبه حياته من هذا القبيل بلعبة كان يلعبها الأولاد في عهد صباي إذ يعصبون عينَيْ واحدٍ منهم فيمضي يضرب بيديه ذات اليمين وذات اليسار وهو يردّد: «أنا أعمى ما بشوف». فلا يندر أن يصيب أخاً له أو صديقاً بضربة جنونيّة، مثلما لا يندر أن يضرب الحائط أو الكرسي فيصرخ من شدّة الألم.